رائف زريق*

من أين يولد الأمل في الحرية؟

هل من أمل في الثورات؟ وهل المعارضة ممكنة؟ وهل هناك إمكان للتغيير الجذري؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمن أين يولد الأمل؟

بعد أعوام عجاف، عاد الناس ليقبضوا على جمر مصيرهم بأيديهم. المشهد الأساسي هو مشهد الثورات العربية من تونس إلى سورية، مروراً بمصر وليبيا واليمن. سال دم كثير ودموع أكثر، إلاّ إن رياح التغيير التي هبّت هذه المرة في الشرق وصلت عدواها إلى الغرب، وخرج الناس في أثينا وإسبانيا ونيويورك إلى الشوارع. هل الثورة ممكنة؟ والمقصود ليس هذه الثورة أو تلك، في هذا البلد أو ذاك، وإنما هل الثورة ممكنة أصلاً؟ أي هل هناك دلالة مفهومية متماسكة وحقيقية تدعى الثورة؟ أو كان ما سيكون، ولا جديد تحت الشمس؟

للشك مداخل كثيرة وأبواب عدّة. أول هذه المداخل هو الاعتقاد أن للتاريخ مشيئته الخاصة، وأنه يجد طريقه من خلف ظهر الأبطال، وبغضّ النظر عن نياتهم ورغباتهم، كأنه هو البطل الحقيقي الوحيد، لأنه يسخر دائماً من أبطاله، ومن محاولاتهم تغيير مساره. وينشط البشر بصورة عامة، في سياق عصيّ على القبض ومن دون القدرة على الإحاطة بتلابيبه، إذ يبدو كل فعل كضربة في الظلام، ولا يستطيع المرء إدراك دلالة فعله إلاّ بعد انقشاع الظلام وبزوغ الفجر. فقط عندها يفرد طائر الحكمة (كما علّمنا هيغل) جناحيه. لا يفهم المرء مغزى فعله إلاّ بعد أن يسدل الستارة على المرحلة، ولا يعرف المرء حدود المرحلة مسبقاً إلاّ في نهايتها. هكذا يبدو الفعل فعلاً عشوائياً دائماً وأبداً، وتحضر الحكمة متأخرة دائماً، وفقط بعد انتهاء الفعل.

يسخر التاريخ من النيات ومن الإرادة، لأن للتاريخ نياته الخفية وخططه الخاصة به. اسألوا غورباتشوف عن نياته تجديد الاشتراكية التي انتهت إلى القضاء على المشروع الاشتراكي، واسألوا الأميركيين

* كاتب وأكاديمي فلسطيني.

الذين رغبوا في السيطرة على العراق فغزوه، ليكتشفوا لاحقاً أنهم سلّموه على طبق من فضة إلى أيدٍ إيرانية. واسألوا إسرائيل التي تساهلت مع "حماس" بداية حتى تحولت إلى ألدّ أعدائها، واسألوا شباب الثورة في ميدان التحرير الذين ناضلوا من أجل الحرية والمساواة فانتهوا إلى حكم "الإخوان".

لا يترك هذا النموذج أسباباً كثيرة للتفاؤل، ليس لأن التاريخ لا يعدنا بشيء ولأن لا مسار له، وإنما لأننا غير قادرين على اكتشاف منطقه بأنفسنا فتتعذر علينا المشاركة الفاعلة الواعية في صوغ حبكته.

قد يكون هناك أمل، لكننا كبشر نقيم في العتمة، وقد يكون للتاريخ مسار لكننا غير مؤهلين لإدراكه.

هذا المنطق قد يحضر في صيغة قاتمة أكثر، وعندها يكون الادعاء أننا نعمل دائماً وأبداً في سياق اجتماعي ـ اقتصادي ـ سياسي لا نرى منه إلاّ النزر القليل، وليس لدينا أي قدرة على التحكم في مساره، لأن مجموع القوى العاملة والمؤثرة فيه لانهائية، وتتعذّر الإحاطة بها علمياً، والتحكم في مسارها اجتماعياً وسياسياً. وإذا كان النموذج الأول يترك لنا فسحة من الأمل مصدرها أن للتاريخ مشيئته ومساره، فإن هذه الصيغة القاتمة تلغي أي غائيّة عن التاريخ. لا مسار للتاريخ ولا منطق له، وما هو إلاّ حزمة من المصائب حيناً والحظوظ الجيدة حيناً آخر. هنا، يتعذر علينا أن نكتشف منطق التاريخ ليس جرّاء قصر النظر الذي يتحكم فينا، وإنما لأنه لا يوجد هناك ما يمكن اكتشافه.

أمّا المدخل الثالث لمنطق الشك في إمكان التغيير الجذري فيقوم على الفرضية القائلة إن كل جسم معارض، وكل حركة احتجاج تحتاج إلى لغة مشتركة كي تخاطب المؤسسة الحاكمة. فكل جسم معارض، عندما يخاطب المؤسسة، يفترض وجود قواسم لغوية ومعنوية مشتركة من شأنها أن تترجم قوة المعارضة إلى لغة يفهمها النظام، وتفهمها المؤسسة. غير أن الخطر الدائم يكمن في أن يقوم النظام باحتواء المعارضة التي تركن إلى استخدام اللغة والمفردات السائدة، فيتعزز الإجماع بدلاً من أن يتصدّع، وتعيد المعارضة إنتاج اللغة التي وُجدت أصلاً لتتجاوزها. وعليه، فإن المعارضة تجد نفسها، في كثير من الأحيان، تؤسس للهيمنة التي ناضلت ضدها. وبهذا المعنى أيضاً، فإن القوى المهيمنة والمسيطرة تخرج مستفيدة دائماً: فإذا غابت المعارضة وساد الصمت فهي مستفيدة، وإذا تطورت المعارضة فإنها مؤهلة لاستيعابها وتوظيف شرعيتها كي تؤسس لشرعيتها هي نفسها.

كثيرة هي الحركات التي بدأت كحركات راديكالية وانتهت لتؤسس للنظام القائم. ويحدث ذلك ليس لأن أصحابها خانوا قضيتهم، وإنما لأن هناك منطقاً متناقضاً يسيطر على حركات الاحتجاج في كل مكان. فإذا رغبت حركات الاحتجاج في أن تخاطب المركز وتؤثر فيه، فإن عليها أن تستعمل علم المفردات الذي يستعمله المركز وإلاّ بقيت في الهامش. لكن هذا الاستعداد لتوظيف اللغة السائدة والمهيمنة من أجل إحداث تغيير من الداخل محفوف بالمخاطر، لأن ثمنه يُدفع عدّاً ونقداً بالتنازل عن القيم الراديكالية التي من أجلها وُجدت حركات الاحتجاج هذه. وفي المقابل، فإن التمسك بلغة راديكالية بديلة من شأنه أن يضع هذه القوى في منطقة هامشية في المجتمع، ويمنعها من القدرة على إحداث تغييرات في صلب النظام. إن التاريخ مملوء بالشواهد على كلتا الحالتين: حركات راديكالية استوعبها النظام، وحركات راديكالية حافظت على لغتها لكنها لم تخرج عن كونها حركات راديكالية على أطراف المجتمع والسياسة.

وبموجب هذا النموذج فإننا محكومون باللغة وبجدلية المعاني والنظم المعرفية والرمزية، كما أن الخروج عن المبنى يفترض الخروج من المعنى وتجاوز اللغة، أي وعي اللاوعي، وتطوير القدرة على إدارة رؤوسنا والالتفات إلى الخلف إلى درجة تؤهلنا لرؤية ظهورنا، أي رؤية شروط حضورنا المفهومة ضمناً.

إذا كانت هذه هي الحال، فمن أين يأتي الأمل؟ وما مبرر هذا الأمل؟

تقدّم الماركسية نموذجاً للأمل، ومن تجليات هذا الأمل مقولة بريخت في رواية الأم: "أيها الوقت أنت أمل هذا الشعب"، ذلك بأن ماركس، وبخلاف هيغل الذي كان يشكّك في قدرتنا على القبض على مسار التاريخ خلال حدوثه، كان يعتقد أن من الممكن اكتشاف غائيّة التاريخ وخططه الخفية. وبحركة فكرية تذكّرنا بتوما الأكويني الذي جمع بين العقل والإيمان، حاول ماركس أن يجمع بين الذات والموضوع، بين رغبة التاريخ الموضوعية التي تقود إلى الحتمية التاريخية في إنشاء مجتمع شيوعي يسود فيه الرخاء والإخوة من ناحية، ورغبة البشر في استعجال الغد الموعود؛ هذا الغد الذي أوكل التاريخ مهمة إنجازه إلى طبقة البروليتاريا التي مهمتها تحرير ذاتها وتحرير البشرية جمعاء. وهذا الالتقاء بين مشيئَتي البشر والتاريخ، بين الذات والموضوع، هو الذي يبشّر بالغد المشرق، ويعدنا بنهاية سعيدة للتاريخ. ضمن هذا المنظور فإن مبعث الأمل هو وجود قوانين موضوعية للتاريخ، فضلاً عن قدرتنا على اكتشاف هذه القوانين ومساعدة التاريخ في سعيه المتعثر دوماً نحو غايته، وإرجاعه إلى سكّته القويمة.

على الرغم من أن هذا النوع من الأمل يعتمد أساساً على وجود القوانين وعلى القدرة على اكتشافها، فإنه ليس مفاجئاً أن كثيرين من الذين عملوا بوحيٍ من الماركسية وناضلوا من أجل انتصار مشروعها، تراجعوا عن مشروعهم وهجرهم الأمل والحلم بغدٍ جميل في اللحظة التي اكتشفوا فيها أنه لا وجود لحتمية تاريخية، وأنه، بعكس القطارات، لا يوجد محطة نهائية للتاريخ، وقد انتقل كثيرون منهم من التبشير بحتمية التاريخ إلى مواقع نيوليبرالية تفترض استحالة أي تغيير في التاريخ.

من أين يأتي الأمل إذاً، وكيف نعثر على مفرداته؟

يبقى الأمل عصيّاً على القبض، وهو لا يكمن في اكتشاف قوانين التاريخ وحتميته، ولا في حتمية التقدم، وإنما في إمكان التقدم، إذ مثلما يتعذّر علينا أن نبرهن أن التاريخ يسير بنا نحو النهاية السعيدة، فإنه يتعذر علينا أن نبرهن أيضاً أننا نسير نحو الكارثة. هناك بعض النهايات السعيدة لبعض الثورات الكبيرة ولبعض المشاريع التاريخية، وقد يكون ذلك ضرباً من الحظ لا غير. هذا صحيح طبعاً، لكن الحظ يكون أحياناً بحاجة إلى مَن يساعده، أي كي يحالفنا الحظ علينا أن نشارك في سحب اليانصيب أولاً. الأمل ينبع كالماء من أسفل الوادي وليس من قمة الجبل. من أماكن أكثر تواضعاً، وأكثر تماسكاً أيضاً. قد يكون من المتعذّر علينا أن نرى ظهورنا، لكن في إمكاننا الاستعانة بالمرايا. وقد يكون من المتعذر علينا الخروج من مغارة أفلاطون لننتقل من الظلّ إلى النور، لكن يمكننا الانتقال من مغارة إلى أُخرى. وقد يكون من المتعذّر علينا تجاوز مبنى اللغة ودلالاتها الرمزية، لكن من الممكن أن نراوح بين خطاب وآخر، بين لغة وأُخرى، بين هيمنة وهيمنة. فهامش الحرية المطلق لا يكمن في الخروج دفعة واحدة من أي سياق للقوة، وإنما في القدرة على المناورة بين اللغات

المتعددة وأساليب الهيمنة المتنوعة، عسانا في ذلك نوسّع هامش الحرية، فندركها أسلوباً للعيش وفنَّ مقاومة القوة والهيمنة والسلطة، لا هدفاً نسعى للوصول إليه.

ومن هنا، فإن المقاومة والمعارضة والثورة ضرورية، ليس بصفتها حاجات اجتماعية وسياسية فقط، بل باعتبارها حاجة نفسية ووجودية وجمالية أيضاً. نحن كبشر لا نستطيع العيش من دون أمل بإمكان تغيير أوضاع حياتنا. لقد انتبه كانت (Kant) إلى طبيعة العقل الإنساني حين أشار في افتتاحية كتابه "نقد العقل الخالص" إلى أن من طبيعة العقل البشري أن يسأل أسئلة يدرك تماماً أنه غير مؤهل للإجابة عنها، مثل التساؤل عن وجود الله، والخلود والحرية.

وبوحي من كانت يمكننا أن نقول إن من المتعذر على الروح الإنسانية أن تتوقف عن حلمها في التقدم نحو تحقيق حريتها، لأن الحرية جوهر الإنسان. ليس لهذا الأمل أي أساس علمي يقوم عليه، لكن ليس هناك أي أساس علمي لدحضه أيضاً. وباعتباره كذلك، فإن الأمل قيمة لا تتكئ على أحد، ولا تتعكّز على العقل، وإنما تتألق بذاتها، وتشعّ وحدها كنجمة الصباح. وإذا كان ماركس قد أخطأ حين اعتقد أنه يمكن الجمع بين الذات والموضوع، فإنه صدق حتماً حين أشار إلى أننا في محاولتنا تغيير العالم، إنّما نغيّر أنفسنا ونخلقها من جديد.

"نحن محكومون بالأمل". قالها سعدالله ونّوس مختزلاً ٢٠٠ عام من الفلسفة. ■

يصدر قريباً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

القدس والإسلام

دراسة في قداستها التاريخية من المنظور الإسلامي

خليل عثامنة